القصص

من أساطير الاغريق

بنــــدورا
و
سرقة النار المقدسة

للأستاذ دريني خشبة

« هدية الآلهة إلى الأناسى فى جميع العصور !! »

توزَّعَ الآلهة تعمير الكون ، فكانت الأرض من نصيب برومثيوس بن يابيتوس ، أحد ذرارى التيتان العمالقة ، الذين حبسهم أبوهم خشيةَ جبروتهم ومخافة بأسهم . . .

وطفق بروميثيوس يفكر ويفكر ، حتى بَدَا له أن يجعل فى الأرض أناسيَّ يخلقهم على صُوَرِ الآلهة ، فاستعان أخاه أبيمثيوس فهداه إلى الحمأ المسنون ، أو الطينة البشرية ، فخلقا منها الانسان الأول ، وذهبا إلى إيروس(1) فنفخ فيه من روحه ؛ التى هى الحياة ؛ وقصدا إلى مينرفا فنفثت فيه نفثتين ، هما النَّفَس والعقل

وخلق بروميثيوس رجالاً كثيرين على هيئة آدم الأول ، وجلس على أكمة عالية يشرف على عباده الصالحين !! ولشد ما كانت الكبرياء تشيع فى أعطافه ، كلما نظر فوجدهم يتحدثون بآلائه ، ويسجدون له ، حتى فكّر فى نعمة أخرى يسبغها عليهم فتكون أجزل النعم !

« النار ! النار المقدسة تنفعهم وتُلين لهم حديد الحياة !

« فلأذهب إلى الأولب ولأتحسّس ؛ فاذا استطعت أن أتغفَّل زيوس ، فانى سارقٌ لهم قبساً من ناره التى آثر بها نفسه على سائر العالمين ! »

بروميثيوس يخلق الانسان كما تزعم الأسطورة

ومع أن بروميثيوس يعلم من أمر هذه النار ما يعلم ، ومع أنه يعلم أنها محرمة على غير الآلهة ، وأن كل من استباحها لنفسه ممن عداهم تعرض لمقت الاله الأكبر ونكاله ، فقد ذهب إلى الأولب وتغفل زيوس ، ودسَّ قبساً من النار فى تضاعيف ثيابه ، وعاد كالبرق إلى عباده المخلصين يقدم اليهم هديته التى سرقها من أجواز السماء !

ونظر زيوس من علياء الأولب ، فرأى النيران تتأجج هنا وهناك فى أديم الأرض ، ففطن إلى السرقة النكرة ، وانقذفت من فمه المزبد رعود الغضب !

وارتجف الأولب ، وزُلزلت السماء ، وارتعدت فرائص الآلهة ، وأمر الاله الأكبر فأحضر بروميثيوس مكبَّلاً بالأصفاد ، ملطخاً بالوحل ؛ وعبثاً حاول الدفاع عن نفسه ؛ ثم حُكم عليه فَسيق إلى جبال القوقاز ، حيث غُلَّ عنقه الضخم وذراعاه الكبيرتان ، وفخذاه اللتان تزريان بفخذى فيل ، فى قنة عالية . وسخّر الاله الأكبر رُخّاً عظيم الجثة ، حاد الأظافر ، كبير المنسر ، فذهب إلى حيث بروميثيوس ، ينوشه ، ويمزق

(1) إيروس هو كيوبيد إله الحب

جسمه ، وينفذ أظافره ومنسره فى أحشائه حتى تبلغ الكبد ، فيهرأه ويطعمه حتى يأتى عليه ، وينصرف إلى غد

بروميثيوس مكبلا على قمة جبل القوقاز والرخ ينوشه

فاذا كان الليل ، وهبّت الريح سجسجاً ، التأمت جراحات الاله المسكين ، وخلق له كَبِدٌ آخر ؛ وينام حتى تشرق الشمس ، فيعود الرخ ليبدأ ما انتهى منه أمس ، وليأخذ فى تعذيب بروميثيوس التّعس ، إلى أن تغيب ذُكاء !! وهكذا دَوَالَيْك ، أحقاباً وأحقابا . . .

ويلبث الاله المنكود فى هذا العذاب الطويل حتى يلقاه هرقل(1) الجبار فى أحد أسفاره ، فتثور الشفقة فى قلبه ، وينقض كالصاعقة على الرخ ، ولا يتركه حتى تزهق روحه ، بعد صراع عظيم ، ثم يفك أغلال بروميثيوس ويحرسه ، حتى يقبل الليل فيشفى مما به ، ويسير بين يديه حتى يبلغ أوطانه ، حيث عباده الصالحون !!

وفرح الناس بالههم وسروا بلقائه ، وقدروا مالقى فى سبيلهم ومن أجل سعادتهم فغنوا له وأخبتوا

وكانوا يحيون فى بُلَهْنِيةٍ ، غارّين فى طراوة من العيش ، وسعة من الرزق ، هواؤهم رُخاء وماؤهم صفاء ، لا يشكون متربةً ولا يعرفون ضنكاً ، ولا تلم بهم ملمة من مرض أو رجس .

(١) إله القوة والرياضة ، وأسطورته من أبرع الأساطير اليونانية وسننشرها قريباً

ولم يعرفوا الموت ، ولم يدروا ما البكاء ، فكأنما كانت حياتهم طوبى ، ونعيما مقيما

وعلم زيوس ما كان من أمر بروميثيوس وفرح الناس بأوبته إليهم ، فغيظ غيظاً شديداً ، وآلى ليكيدن لهم كيداً ، وليرسلن عليهم من مكره مالا طاقة لهم به . . .

ونظر زيوس فرأى أنهم مخلوقون على صور الآلهة ، ولكنهم كلهم ذكران ، « ومن الآلهة أنثيات ، فلم لا أصنع لهم أنثى تذهب بحرثهم ونسلهم ، إن صح أن يكون لهم نسل ؟ . . . »

وأرسل دعوةً عامةً إلى جميع الآلهة فسمت إليه من كل فج عميق ، وأخذ يحدثهم حديث بروميثيوس ، ثم أخبرهم أنه يريدهم أن يخلقوا له أنثى جميلةً يودع فيها كل منهم سراً من أسراره : « لأننى سأرسلها هدية إلى هذا المجنون بروميثيوس ليشهد بعينيه ماذا تصنع بعباده الذين خلق . . . »

واقترح الآلهة أن يفرغ هيفستوس(١) إله النار والفن ، وابن زيوس ، إلى ابتداع هذه الأنثى ، فسوّاها من نفس الحمأ الذى خُلق منه الانسان ، وجاءت آيةً من آيات الحسن ، رقيقة كأنها صُوّرت لتكون فتنة الأواب

واحتملها إلى زيوس ، وأقبل الآلهة ينفثون فيها أسرارهم ، ويستودعون نفحاتهم ؛ فهذه فينوس تهبها من جمالها ، وحيرا من ثروتها ، وميزفا من حكمتها ، ولاتونا من استيحائها ، وديانا من رشاقتها ، وكيوبيد من حبه ، وأبوللو من شعره وموسيقاه . . .

أما هرمز الخبيث ، فقد انتظر واستأنى حتى فرغ الآلهة من إسباغ آلائهم ، ثم تقدم ، وملء وجهه ضحكةٌ ساخرة ، فأودع الحواء(٢) قلبَ كابرٍ ، ونفسَ لص ، وعقلَ ثعلب !! ..

ثم نفخ فيها زيوس من روحه ، فدبت الحياة فى أعطافها ، ونظرت حولها فأبصرت الآلهة مشدوهين ، مأخوذين بسحر جمالها ، فولّت مدبرةً ، ولكن إلى غير مهرب !

وشرع الآلهة يتخيرون لها الأسماء ، ثم سماها ربها « بندورا . » وأومأ إلى هرمز فاحتملها ، كالطفلة المدللة ، وذهب بها ، هديةً

(١) هو فلكان الرومانى
(٢) الحواء ... الأنثى الأولى

غالية من السماء إلى التعس بروميثيوس ، الذى رفضها غير شاكر وأباها غير حميد ! !

وكان لديه أخوه أبيمثيوس فكادت نفسه تذهب شعاعاً حين أبصر هذه الغادة الهيفاء ، يرفضها أخوه هدية من السماء ! وتقدم هو فضرع إلى هرمز أن ينزل له عنها ، وأن يغفر لأخيه حماقته ، وقلة بصره ، وكفرانه الذى لا كفران بعده ! !

ومع ذاك فقد نصح بروميثيوس لأخيه ألا يقبل هذه الهبة من الآلهة ، وأن يرفضها ، غير مشكورة ، كما رفضها :

— « إنها فتنة يا أخى ، بل هى خدعة من خدع السماء حرىٌّ بنا ألا تنطلى علينا ! »

— خدعة ؟ ! خدعة ماذا يا أخى ؟ خذ عينىَّ فابصر بهما ، وقلبى فضَحِّه على مذبح هواها . . . . ألا ترى إلى عينيها الجلاوين ، وشفتيها القرمزيتين ، وثديها الناهدتين ، وفخذيها المملوءتين ، وساقيها الجميلتين ؟ . . .

— « بل بحسبى عيناى يا أخى ! إنى أستشفُّ بهما فتوناً نفثته الآلهة فى كل جوارحها ، فحذار ! إنها ستكون خراب هؤلاء الساكين الذين صنعتهم يداى ! ! »

— « حسبك يا أخى وحسبى ! هى لى من دونك ، فتولَّ عنا أودعْ ! »

* * *

وعاشت پندورا مع إپيمثيوس كما يعيش الآلهة فى الفردوس . . . حياة كلها مرح ، وأياماً جميعها لذة وإيناس ، يخلو اليها فتمتزج روحاها ، وتختلط نفساها ، وتكون هى فتنة زوجها المكين ؛ تأسر لبه بموسيقاها الحنون : وتسحره بالزرقة الناعمة فى عينيها ، وتبهره بكلماتها الغوالى فى الحكمة والموعظة الحسنة ! !

وتركهما زيوس حيناً من الدهر ينهلان خمر الحياة ، ويعبان من عسلها المصفى ؛ ثم دعا اليه هرمز ، فحمله صندوقاً ثميناً ، وأنفذه به اليهما . . . « . . . وإياك أن تعبث به فى الطريق ، فانه هديتى إلى پندورا ، وفيه انتقامى من عباد پرومثيوس ؛ فسر به إلى الفتاة ، وأوصها به خيراً . . . »

وكان الزوجان يتراقصان على الحشيش الأخضر أمام قصرهما المنيف حين أقبل هرمز بالصندوق ، يتمتر فى مشيته ، وقد بدت وعثاء السفر عليه ، وعلق الثرى بأسماله البالية ، فلفتت پندورا نظر زوجها اليه ، وذهبا سوية للقائه والاحتفاء به ؛ ولكن هرمز أبى إلا أن يذهب إلى القصر ، ليسلم الهدية ، وليبلغ رسالة السماء . فسار الجميع حتى كانوا فى المخدع الوثير ، وجلس هرمز يستريح قليلا ، ثم قال :

« هاك يا پندورا العزيزة هدية الآله الكريم إليك ، خصك بها من دون براياه أجمعين . وأحسبك فى غنى عن أن أصفها لك . فها هى أمامك تتكلم عن نفسها . ولكن الآله الأكبر يشترط ألا تفتحيها إلا باذنه ، فلا تتعجلى ، حتى يأتيك أمره . وإنه لقريب . »

ونهض هرمز ، وسلم وانصرف ، وما تزال بوجهه تلك الضحكة الساخرة التى كانت عليه يوم استودع پندورا قلب الكلب ، ونفس اللص ، وعقل الثعلب . . .

وكان إپيمثيوس قد قدم اليه من ثمر حديقته الشىء الكثير ، ولكنه لم يمد يده اليه . . .

* * *

وكان الليل قد قارب أن ينتصف ، وكان الكرى قد لعب بطرفها الوسنان ، فاستلقت على أريكتها الحريرية ، وغرقت فى سبات عميق ، ممتلىء بأحلى الرؤى ، وأطيب الأحلام

وخيِّل اليها أن فى الصندوق أرواحاً سحرية تكلمها ، وتنسج الأمانى العذاب لها ؛ وأن دنيا بأكملها تتفتح وتزهر حولها . . . فلما نهضت من نومها فى بكرة اليوم التالى ، أحست أن أملا كبيراً يملأ قلبها ، وأن رغبةً ملحةً تسوقها إلى الصندوق كلما ابتعدت عنه ؛ وحدثت زوجها بما تجد ، فملأها هو الآخر بالآمال ، وأخذ يهدىء من روعها الذى بدا اضطرابه بأجلى مظاهره . . . ودعاها إلى نزهة خلوية فأقسمت لا تغادر البيت ، بل لا تغادر الغرفة التى تضم الصندوق الصغير ، « الذى أحس أنه معلق على قلبى ونفسى جميعاً . . . ! » فرثى لها ، وانطلق هو ، لأول مرة منذ عرفها ، وحده ، يندم إخوانه الآلهة ويلاعبهم ؛ وپندورا وحدها فى مخدعها ، تقلب الصندوق العجيب ، وتتحدث إليه ، كأنه يسمع ويرى

وغبرت أيام وهى فى حال من الهم لم تعهدها من قبل ، وكانت تجلس وحدها حزينة كاسفة ، تنتظر بشير الآلهة الذى يأذن لها بفتح الصندوق . . . ولكن هيهات ! . . . لقد طال ما انتظرت

حتى نفد صبرها وعيل ، ونهضت إلى الصندوق تقلبه ، وتقلبه ، وهي مأخوذة بجمال صنعه ، ودقة زخرفته ، وهذا الغطاء المزركش الذي انطلق على آمالها وأحلامها . . .

وحاولت أن تفتحه ، ولو أغضبت بذلك السماء ومن فيها من آلهة وأرباب ، ولكنها فشلت غير مرة ، وضاقت بها الدنيا بما رحبت ؛ فدفعت بالصندق دفعة قوية على أديم الغرفة ، فانصدع ، ولما تناولته ثانية ، هالها أن وجدت بعض أربطة الغطاء قد تقطعت ، ثم هالها أكثر أن تسمع هذه الأصوات ، منطلقة من الداخل :

« پندورا ! پندورا ! پندورا العزيزة ! حنانيك ! خلصينا من هذا السجن السحيق ! إننا نتعذب هنا ... انقذينا يا پندورا فقد ضقنا بما نحن فيه . . . إننا لم نصنع شيئاً حتى نرسف في هذا الحيز الضيق . . . »

« ماذا ؟ . . .

ما الذي يتحدث هكذا في هذا الصندوق . . . ؟

إنها أصوات حزينة مكلومة ، وإني لا بد منقذتها !

ماذا أنتظر ؟ أمر السماء ! هذا لا يهم ! !

انفتح أيها الغطاء . . . ! »

وضغطت الصندوق ضغطة هائلة فانفتح الغطاء ؛ وسرعان ما انطلقت خفافيش سوداء ذات مخالب حادة فملأت هواء الغرفة ، وأهوت على پندورا المسكينة تعضها وتجرح بدنها الغض ، وكلما وخزها خفاش لعين ، انطلق قائلاً : « أنا المرض ! » ويقول آخر : « أنا الفقر ! » ويقول ثالث : « أنا الجوع ! » . ويصيح رابع : « أنا البخل ! » . وخامس : « أنا القحط » . وسادس : « أنا النفاق ! » وسابع . . وثامن . . . إلى آخر الرذائل التي تكظ الحياة إلى يومنا هذا ؟ ! . . .

وانطلقت الخفافيش من الغرفة إلى القصر ، فجرحت الخدم والحول ثم انطلقت إلى الحديقة . . . وإلى الطريق حيث كان إپيمثيوس وأقرانه الآلهة ، فأوسعتهم عضاً ونهشاً وتجريحاً . وتركتهم يترنحون من الألم ، وذهبت تفسد في الأرض ، وتنتقم لزيوس الجبار من عباد پروميثيوس المخلصين ، فكثرت الآلام ، وعم الفقر ، وامتلأت الأرض رذائل وأشجاناً ! ! . . .

وكانت پندورا قد أسرعت إلى الصندوق فأغلقته ، حين رأت من أمر هذه الخفافيش ما رأت

پندورا وصندوقها

ولكن : وا أسفاه ! !

إنها حين أغلقت الصندوق ، حبست فيه الروح الطيب الوحيد ، الذي خبأه فيه زيوس ... ألا وهو : « روح الأمل ! »

وانبطحت پندورا على أرض الغرفة تئن وتتوجع ، وتشكو البرح الذي ألم بها ، حتى أقبل إپيمثيوس فانبطح إلى جانبها يشكو شكاتها ، ويتألم آلامها . . .

ولبثا يبكيان . . .

وكلما حدثته پندورا حديث الصندوق ، تسخط الآلهة التعس وتبرم ، وحدجها بنظرة فاترة ، قائلا : « نصحتك فلم تصيخي . . . ! »

وسمعا صوتاً ضعيفاً في الصندوق يقول : « پندورا ! پندورا ! لماذا حبستني هنا وحدي ، وأنا روح الخير ... افتحي ... افتحي ... إني سأشفيك من جراحك ، وآسو آلامك وأوجاعك ... افتحي ... »

ولكن پندورا كانت في شغل بآلامها فلم تنهض ولم تجب ، ولكن إپيمثيوس تناول الصندوق ففتح غطاءه ، فانطلق فراش أبيض جميل ، هو روح الأمل ، ما فتئ يرف بكل جرح من جراحات الزوج حتى شفاها جميعاً ؛ ثم شفى جراح الزوجة كذلك ، وانطلق إلى عباد پروميثيوس يشفيهم ويأسو جراحهم ؛ وما فتئ إلى اليوم ، هذا الفراش الأبيض الجميل ، روح الأمل ، يشفي أوجاع المحزونين والمكلومين

بورك الفراش الأبيض !

ولا بوركت خفافيشك السوداء يا پندورا !

درينى خشبه